أمـــــــــــي

• نعمـات البحـيـري*

لم تكن أمي تدرك على نحوٍ ما أنّ المسألة جدُّ خطيرة. ربما أخطرُ بكثير من الشكل الذى تعاملتْ به مع الحكاية حين روتْها أختي سعاد علينا فسخرتْ منها. حكت ما رأته تحديدًا، دون حذف أو إضافة، فقالت إنَّها حين وقفتْ في الحمّام رأت من نافذته شيئًا يطير في منور العمارة دون جناحين. كذَّبتها أمي وقالت إنّ سعاد تحديدًا لا بدّ وأن تكون قد شردتْ بأفكارها منذ تخرجتْ وجلستْ في شرفة العمارة تحصي الرؤوس الطافية على سطح الشارع مثلَ جثث.

بعد يومين أكدتْ منى بنت الصفتي، بنتُ جيراننا، أنَّها رأت الشيءَ نفسَه يطير فى هواء المنور دون جناحين. وأضافت أنَّه يُشْبه الثعبان. كررتْ أمي سخريتَها، مضيفةً أنّ بنات العمارة أصابتهنّ لوثةٌ من جرّاء تأخُّر قطار الزواج وشردتْ عقولُهنّ في وهم العريس الذي لا بدّ أن يأتي ولا يأتي، وها هنّ يُنفقن النقودَ والعمرَ على الشيخة «صدفة» التي تَعْرف الطالع، ثم يعدن إلى البيت لينمن إلى اليوم التالي وربما إلى العام التالي.

عم صدقي يعيش وحيدًا منذ ماتت زوجتُه. حكى وهو جالس على قهوة الصعايدة المواجهة للعمارة أنَّه رأى بعينيه، وهو خارج من الحمّام، شيئًا يطير فى المنور بلا جناحين. لم تصدِّقه أمي؛ فهو فى نظرها رجل «هلاس وبصباص» ولم يترك امرأةً فى العمارة بل وفي الحيّ كلّه إلاّ وغازلها، وليس من المستبعد أن يَرْكب موجة البنات ويتحدَّث هو الآخر عن شيء رآه يطير فى المنور بلا جناحين.

الواقعة نفسها أكّدها أحمد بلال، الذي شاب شعرُه دون أن يتزوَّج أو يأتيه عقدُ عملٍ من الخليج. وأمه ما تزال تُمْطره بدعواتها في النازلة والطالعة وهي تراه يغيب فى بئر السلم.

توالت الحكايات ولم تصدِّق أمي غيرَ عمّ حسان، جارنا الطيِّب الذي يؤذِّن لصلاة الفجر فى شرفة شقته. حكى أنَّه منذ أيام قلائل، وبعد أن أذَّن لصلاة الفجر ونزل إلى المسجد، رأى فى ظلمة السُّلم شيئًا يجري نحو أقرب نافذةٍ تطلّ على منور العمارة وألقى بنفسه منها. وعندما لحقه عم حسان رآه يطير، فتذكَّر ما روته أختي وروته منى بنت الصفتي ورواه عم صدقي وأحمد بلال.

...

فى ظهيرة ذلك اليوم قررتْ أمي أن تبحث فى مسالة ذلك الشيء الذى يطير دون جناحين فى هواء المنور. جمعتْ رجالَ العمارة ونساءها وأكّدتْ على الجميع بضرورة البحث عن رفاعي؛ فهو وحده القادر على أن يخلِّص العمارةَ من تلك الكائنات. لم يفلحْ أحد فيما أكّدتْ عليه أمي سوى عم صدقي؛ فهو الجالس ليلَ نهارَ في قهوة الصعايدة يَرْصد حركةَ الرائح والغادي ويتطلع إلى الغسيل الأبيض المنشور في شرفات النساء الوحيدات، فيرفرف قلبُه طربًا وشوقًا. وحين رأى رفاعيًا يسير في الشارع وفي يده حقيبة كتانية كالحةُ اللون، أخذه من يده وصعد به شقتّنا.

كانت أمي تنظر إلى حقيبة الرفاعي المتسخة في توجُّس. ولما فطن الرجلُ إلى نظرات أمي أَقْسم على المصحف الشريف بأن لا شيء في الحقيبة سوى بعض ما جاد عليه به المحسنون: قطعة جبن روميّ جافة من بَكْر الذي يبيع بالجملة، ورغيفَ خبز من فرن حمادة، وثمرة طماطم، وأخرى من الخيار، وبعض الجرجير. ولما رأى أمي ما زالت صامتة تنظر إليه والجميع يتابعونها في صمت وإذعان، استشعر أنّ ثمة اتفاقًا أن يبدأ العمل. فنزع جلبابه وتحرك فى العمارة وهو يَخْبط على شقق دون غيرها ويردِّد كلماتٍ غيرَ مفهومة ذاتَ مخارج غيرِ واضحة. ثم راح شيئًا فشيئًا يُخْرج ما في الشقق من ثعابين.

سادت حالةٌ من الذعر والهلع والهرج والمرج بين البنات والبنين والرجال والنساء في العمارة. فقد أَخْرج الرفاعي من شقتنا ثلاثةَ ثعابين، ومن شقة الصفتي ثعبانًا واحدًا، ومن شقة عم صدقي ثعبانيْن، ومن شقة عم حسان نفسه أربعة ثعابين، ومن فوق السطح أخرج الأمَّ الكبيرةَ والأبَ الكبير. بدا كلٌّ منهما عجوزيْن جدًا.

كنّا واقفين وكأنّنا نموت ببطء شديد، وكأنّ الزمن واقفٌ في مكانه وفي مكاننا. ظللنا هكذا حتى مضى الرجل يخبّئ ثعابينه فى الحقيبة الكتانية المتّسخة.

---

* ـ كاتبة مصرية.

كانت نظراتُ أمي تبعث بسؤال كبير مثل مطرقة تدقّ على رؤوسنا: هل نَسْكن عمارةً فيها كلُّ هذا الكمّ من الثعابين؟ بدا وجه أمي صامتًا ووجوهُ النساء والرجال مكفهرةً وملامحُهم مدموغةً بالذعر. لكنّ الرجل كان يوجّه حديثه ونظراته إلى أمي التي كانت حزينةً إلى درجةٍ لم أرها من قبل.

اقتربتْ أمي من الرجل ونظرتْ إليه، فأَقْسم أنْ لا ثعابين أخرى في العمارة. لكنّ أمي لم تصدِّقْ الرجل أبدًا، وبدا من نظراتها الشكُّ والريبةُ، كما بدا التعبُ والحزن. مضى الرجل وظللنا واقفين، كلٌّ منّا يَنْظر إلى الآخر. أتصوَّر أنَّه لم تمرّ لحظةٌ علينا أثقلُ من هذه. كنتُ أحسّ بأنّ العمر الباقي مثلُ ريشةٍ سريعةِ الطيران، وأنّ ما مضى منه مثلُ كيسِ رملٍ ثقيل. واختلط دخانُ سجائر الرجال بصوت أمي التي راحت تأمر عم صدقي وعم حسان وأحمد بلال بالبحث عن رفاعي آخر.

قبل أن تبدأ أمي في توزيع مسؤولية تنظيف الشقة من آثار الثعابين أَمرتْنا نحن، بناتِ العمارة وشبابَها، بأن نرافق الرفاعي حين يأتي لنتعلّم جميعًا حرفته.

كنّا نَنْظر بعضنا إلى بعض في توجُّسٍ صارمٍ. وكانت تلك المرأة الواقفة على مقربةٍ منا تتابعنا بحرص غريب.

القاهرة

المجلة غير موجودة في سوقك؟

- اشترك مباشرة (راجع ص ٢)
- زُر موقع الآداب الإلكتروني www.adabmag.com

الأفكار لا تُفْسِد... الكبتُ هو الذي يُفْسد!